السوقية فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت مقال الأستاذ الزيات الذى عنوانه « دفاع عن البلاغة » ، فوقع فى نفسى على القبول والاستحسان ، وألفيته ترجماناً عن معان ترددت فى نفسى ورددها لسانى ، وذكرنى بحديث تحدثت به فى دمشق فى دار الأستاذ الصديق العلامة محمد كرد على رئيس المجمع العلمي العربى

أذكر أنى جلست والأستاذ مرة فأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ، وأفضنا فى أمور شتى حتى دفعنا فى الكلام عن الأدب وما عرض له من آفات ، وما حاق به من مساوئ الاتجار ، ومسايرة الآلات الحديثة عجلة واندفاعاً ، ومن تملق الجمهور بالإسفاف إليه ، والتيسير عليه ، وإمتاعه وتلهيته بما يلائم القراءة العجلى والنظرة السريعة . وقد أجملت هذا كله فى كلة ، فقلت : « قد غلبت السوقية على الأدب » قال الأستاذ : أصبت المحز بهذه الكلمة ، وأحسنت التعبير عما يسميه الفرنسيون : Mercantalisme

وبيان هذا أن الآلات الحديثة يسرت الصناعة ، وعممتها ، وزوقتها ، ولبست الجيد الثمين والردىء الرخيص فى بعض المظاهر . فطمح كل فى اقتناء الأمتعة التى كان لا يطمع فيها إلا الأغنياء ، وطمع الفقراء فى منافسة الأثرياء بأمتعة تقارب أمتعتهم أو تشبهها شكلا ولوناً ، وقابل الصناع والتجار هذا الطموح وذاك الطمع بما يسده من بضاعة مزيفة مزينة خداعة ، وكسدت الصناعات اليدوية الجيدة التى تكلف الصانع عمل الأشهر أو السنين ، وأعرض الناس عنها مشفقين من تكاليفها . فمن لم يملك ثمن الحرير الطبيعى أو لم تسخ يده به عمد إلى الحرير الصناعى ، ومن لم يستطع اقتناء الذهب اقتنى المذهب أو المموه . ومن لم يتسع ماله لاشتراء الماس اشترى ما يشبه الماس ، ومن لم يقدر على اللؤلؤ البحرى لجأ إلى اللؤلؤ الصناعى ، وهلم جرا . فشاع بين الناس الصناعى إلى جانب الطبيعى ، والمقلد إلى جانب الأصلى ، والسوق إلى جانب المستصنع ، والزيوف إلى جانب الجود ، والبهرج بجانب الصحيح

والعلم على هذا القياس ، فقد تولت الحكومات التعليم فيما تولت ، فحددت زمانه ومكانه وموضوعه ودرجاته ، وخططت الخطط لتعميمه ، وجعلت له شهادات تشهد لصاحبها بالعلم وعلى من لا يحملها بالجهل ، وحشر إلى دور العلم الراغب والكاره والأهل وغير الأهل ، ووجه الأحداث الوجهة التى يريدها العرف أو النظام أو الضرورة لا التى تميل إليها نفسه ، وتختارها مواهبه . وجرف التيار الناس ، فصارت المدارس مصانع تصنع التلاميذ على قوالب متماثلة أو متشابهة ، أو مطابع تخرج آلاف النسخ من كتاب واحد ، وتقدم أصحاب الشهادات إلى الأعمال كما تعرض السلع فى الأسواق

قال بعض السامعين : أليس نشر العلم وتعميمه خيراً للناس ؟ قلت لا ريب أنه خير ولكن معه شرا هو الذى حدثتك عنه . ولست أبغى الآن أن أفيض فى هذا الداء وأدويته ولكن ساقنا إليه الحديث فى الأدب

قال أحد الأصحاب وهو الحديث الذى بدأناه ثم حدنا عنه فلم نعد إليه .

قلت : والأدب على هذا النسق . الجرائد والمجلات والكتب شاعت وانتشرت ، وصار الكاتب بهذه الوسائل الحديثة السريعة يعرض على الناس ما يكتب وكأنه ماثل أمامهم يحدثهم به أو يخطب فيهم . فهو يسايرهم مسايرة المحدث أو الخطيب ، ويلقاهم كل يوم على صفحات الصحف ، يلتمس رأيهم فيما كتب ، ويتعرف موقعه من نفوسهم . وكلما أرضى الكاتب جمهرة القراء سمع ثناءهم عليه وإكبارهم إياه فحرص على هذا الرضا رغبة فى علو المكانة وبعد الصيت . واضطر إلى أن يسف إليهم دون أن يرفعهم إليه ، وأن يجاريهم دون أن يصدهم عما يشتهون ، وأن يلاينهم دون أن يحملهم على ما يكرهون أو يكبحهم عما يهوون ، وأن يلهيهم ويضحكهم لا يشق عليهم ولا يسومهم عناء . فكأن الكاتب تاجر وكأن كتابته سلع فى الأسواق أيضاً . والتاجر

يلتمس لكل سوق ما يروج فيها . والردىء الرائج خير له من الجيد الكاسد .

ووراء هذا أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع يبغون الربح في تجارتهم ، والربح على قدر إقبال الجمهور على ما يخرجون ، وإقبالُ الجمهور على قدر هواه ومتعته ولهوه . فالكاتب الذي يرضي الجمهور ويُمتعه ويلهّيه أقرب إلى أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع ، يبذلون له المال ، ويسارعون إلى نشر ما يريد . على حين يجفون الكاتب المبدع الذي يحمل الناس على المكرَه ، ويقودهم على الطريقة التي فيها صلاحهم وإن نفروا منها نفور المريض من الأدوية الكريهة .

قال صاحبي الملول : وما وراء هذا ؟ قلت : وراءه ما زعمتُه أول الحديث من غلبة السوقية في الأدب ؛ فقد صار بضاعة في السوق أو تلهية في الملاهي ، أُروجُها أقربها إلى عقول الناس ، وطباعهم وإن تفهتَ وحقرت ، وانتهت بهم إلى المهالك . وأكسدها ما علا عن إدراك العامة وأشباه العامة ، وما اقتضى فهمه عقلاً وعلماً وضاق عن الجمهور ووسع الخاصة وحدهم . فمن شاء مالاً ورواجاً وصيتاً ومكانة عند العديد الأكثر فليطلع على الناس كل يوم بقصة أو نادرة أو ملهاة مما يقرأ في القطار والترام وحين انتظارها ؛ وليتجنب الموضوعات التي تحوج القارئ إلى الجِد والكدّ ، والألفاظ التي تحتاج إلى علم باللغة واسع ، والأساليب التي تقتضي التمهل والتأمل لإدراك ما فيها من جودة وبراعة وجمال .

ومن ابتغى إصلاح الجمهور وتهذيبه وتعليمه وشاء الخير العام للناس ، ورغب في الحقيقة والجمال لا يبالي أين يقعان من نفوس الدهماء فلا يتعجّلنّ المكانة والصيت والمال وليكتب ابتغاء مرضاة الله ، وليدعُ إلى الخطة الرشيدة ، وليسمُ إلى مستوى الحق والخير والجمال ، وليبلّغ ما يوحى إليه ربّه ، ويهدي إليه قلبه . وإن طمع في المكانة وحسن الأحدوثة فليعلم أنه منته إليهما لا محالة ؛ ولن يضيع الخير والحق والإجادة والاتقان على مر الزمان ، ولن يذهب العرف بين الله والناس .

فإن سأل سائل : أتريد الناس كلهم على قراءة الأدب الرفيع والفلسفة العالية ؟ قلت لا لا ، بل أريد ألا تتحكم السوقة في الأفكار والأقلام ، وألا يطغى الرواج على الجودة . أريد أن يؤدي الكاتب أمانته ، ويبين عقيدته ، غير حاسب حساب السوق ، وليكن بعد هذا في الكتابة ما يلائم العامة وما يلائم الخاصة ، وما يجمع بينهما . أريد أن يعلو الكاتب ما مكنه طبعه ، وأن يدق ما شاء له فنه ، لا يعنيه إلا أن يؤدي واجبه على الوجه الأكمل . وكذلك أريد أن ينزل الكاتب الآخر كما يريد طبعه ، وأن يسهل ويدنو كما يشاء فنه . لكل وجهة ، ولكل مجال ، ولكل قراء . وإذا صدق كل كاتب نفسه ، وأخلص لعمله ، فرّقت الكتابَ المعارفُ والطبائع ؛ فعلا جماعة وهبط آخرون ، وبعد كاتب وقرب آخر ، وكانت ضروب الكتابة معربة عن ثقافة الأمة وأذواقها ، ملاقية أصناف الناس بما يسد حاجاتهم ، ووجد الناس الصعب والسهل ، والبعيد والداني ، والغالي والرخيص ، كلاً في بيئته وفي مظانّه . لا أدعو إلى أن يصير الأدباء فناً واحداً في البيان وأسلوباً عالياً في الكتابة ؛ ولكن أخشى أن تذهب السرعة بالاتقان ، وتطغى التجارة على الإحسان ، ويمتحن الكتاب حتى يروا حسناً ما ليس بالحسن ، ويجرفهم السيل فيتجهوا حيث يريد الناس لا حيث يريدون ، وينتقل الزمام من يد القائد إلى يد المقود ، ويسير الإمام خلف المأموم ، فتتبهم الغايات ، وتلتبس الطرق ، وتشتبه الأعلام . وما ظنك بجماعة تسير على غير سبيل إلى غير غاية ؟

عبد الوهاب عزام

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ٢٩ ــ ٧ ــ ١٩٤٢ في القضية رقم ١٥٤٩ جنح سنة ١٩٤٢ عسكرية ضد عبده محمد الحوشي ش ٢٦ تاجر حدايد دمنهور حارة الدقاق بملكه بالغرامة ٥٠ جنيه والغلق والمصادرة والتعليق على محله ومركز البوليس والنشر على مصاريفه لبيعه اسمنت بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة

حكم في الجنحة ٨٩٩ عسكرية المنيا سنة ١٩٤٢ بجلسة ٩ ــ ٩ سنة ٩٤٢ بحبس واصف رزق شحاته بقال بالعباسه مركز مغاغه ثلاثة شهور شغل وغلق المحل ثمانية أيام لأنه اختزن سكر وامتنع عن بيعه بالتسعيرة

حكم في القضية ن ١٦٦٣ جنح عسكرية سنة ٩٤٢ ضد تبوية محمد سالم بتغريمها ١ جنيه والنشر والتعليق بتاريخ ٩ ــ ٩ سنة ٩٤٢ وذلك لبيعها لمحاً بسعر اكثر من المحدد